

محطات

في حياتنا

ذلك ، فان على كل موهبة لبنانية ، خاصة اذا كانت طرية العود (مثلي) ان تسهم في خلق آفة جديدة ، بأسلوب جديد ، بحرف عالمي جديد . فنحن امة مميزة ، ذات حضارة عريقة ، تختلف عن البداوة وعن من اسموهم عربا ..

كنت استمع اليه ، ولم يكن لهذه الافكار اصداء مستحبة لدي . فقد احببت هذا الادب « الصحراوي » ووجدت فيه صورة لذاتي وعواظي وافكاري . ومن خلال اطلاعي على الادب الفرنسي ، ومقارنتي اياه مع ادبنا ، اقتنعت انه ادب حضاري ، عريق ، استطاع في لحظات التفتح ، ان ينقل رسالة هي من اعظم الرسائل الانسانية . وان اثته ظروف كبا فيها ، فليس المرض في فكره ، ولا في لفته ، وانما في الظروف التاريخية التي فرضت عليه .

ومن الجو العائلي الذي عشت فيه ، سواء من الناحية الدينية او الادبية ، كنت احس بذاتي تخرج من حدودها الاقليمية الضيقة وتمتد لتتلاقى مع مفهوم للعروبة منفتح وشامل .

كان هذا الشعور « العربي » شعورا عاديا ومألوف . وحين سمعت كلام الشاعر اجفلت واجتاحني موجة من الفضب والرّفص ..

١٧ آب ١٩٥٤ توقف الزمن لحظة ، فقرر امرا وترك للايام ان تنضجه ، ثم استأنف سيره . هل تمّ هذا القرار بمعزل عني ؟ هل انا التي سبعت اليه بمطلق ارادتي ، أم انا تواطننا عليه ؟

كل ما اعرفه ان والدي سألني ، صباح ذلك اليوم : « لماذا اخترت هذا اليوم بالذات لتنزول الى العاصمة ؟ ان الحر هنا في الصيف لا يطاق فكيف الحال في بيروت ؟ » كل ما اجبت به ، انا التي لم تتمرد يوما ، ولم تخالف رايًا عائليا ، انني جمعت اوراقي ، وتوجهت الى العاصمة .

كنت اسعى لتحقيق حلمي في الالتحاق بالجامعة التي اعتقدت انها ستكون منطلقا لتفتح امكانياتي ، لقد صممت ، منذ سنوات ، وعملت بصبر وجهد ، ضمن نطاق الدراسة وخارجها ، على ان اصبح كاتبة . كنت اعسى يومها ما ازيد .

في السيارة التي اقلنتني الى العاصمة ، التقيت بطريق الصدفة ، بشاعر لبناني كبير ، كانت تربطه بأسرتي علاقة صداقة واحترام . وكانت قد بلفته اصداء تفوقى الدراسي ، وخاصة في مادة الادب . وهذا النجاح وضع عائلتي امام مسؤولياتها : ينبغي ان تتابع « البنت » دراستها .. ان تنتقل الى العاصمة .. على ان الانتقال الى العاصمة معناه ، بالنسبة لي ، انا التي لم اغادر مدينتي الا ساعات ، وعشت في جو عائلي مكبوت ومحافظ - معناه ان اقلع من جذوري ، وان اذف في اجواء « غير محمودة العواقب » .

في السيارة ، تحدثنا طويلا عن الادب ومشاكله . ونصحتني الشاعر بالا اختصاص في مادة الادب العربي لانه ، في نظره ، لا قيمة حقيقية له ، وينبغي نسفه ، مادة وشكلا وحرقا . ثم انا غير مسؤولين عن تطوره ولا علاقة لنا به . ينبغي ان نعود الى تراثنا الفينيقي الحقيقي ، والى ادبنا القديم واساطيرنا الجيلية ، فالبحر والجبل مادتا تراثنا ، وليست الصحراء . وعلى

ترجلت من السيارة ، متوجهة الى مكتبة كنت اتردد اليها لشراء كتب فرنسية . وقع نظري على مجلة ، سبق لي ان قرأت بعضها من اعدادها . احسست براحة . سألت الموظف اين تقع ادارة المجلة . فخرج يشير بأصبعه: هناك ، في اول هذا الشارع .

وقفت امام الباب ، واجلت نظري . كانت وجوه ثلاثة تنظر اتي . اصبت برهبة . ولكنني تشجعت . سألت عن رئيس التحرير . نظروا فيما بينهم ، وابتسموا . قام احدهم وقال، وهو يتقدمني الى غرفة مجاورة: « انا هو » . وجلس خلف مكتبه . وأرسل الي نظرات متسائلة . ظللت لحظات صامتة ، واحسست بجو ثقيل يربض على صدري . وكأته احس بضيق فكلمني مرحبا ، لم ارد . سألتني ان كان لدي مادة اريد تقديمها للمجلة . هززت رأسي بالنفي . تابع : « هل تريدن - اشتراكا بالمجلة؟ » ماذا اجيب ؟ لست لهذا الامر قصدته . وساءلت نفسي : ماذا اريد بالضبط ، ولماذا جئت الى هنا ؟ علا الاحمرار وجهي ، وارتبكت . راودتني فكرة الهروب . الآن فقط ، اعسي خطورة ما اقدمت عليه . رفعت رأسي اليه . فاجأته يحدق بي . واذ التقت نظراتنا الدهشة والمستفهمة اخذ يهز رأسه يمينا وشمالا وهو يضحك . قام من خلف مكتبه وجلس على مقعد قبائلي . قال لي : لقد اخافك رئيس التحرير ؟ (كنت على يقين بانه لم يكن يريد بي سوءا) سأساعدك في الكلام . وكاستاذ يمتحن تلميذا نسي درسه راح يطرح علي اسئلة - مفاتيح . كنت اجيب على بعضها، فيما لاحظ ان البعض الآخر لم يكن يعنيه . كان يفاجأ بليئني وبفجاجتي . ولقد صير علي . وحين اجبته اين اسكن علق مازحا : انت اذن من بلدة الشاعر (...) ولم ادعه يكمل ، قفزت من مقعدي ثم هبطت كطفل مرح .

واخذت احده ، بسرعة وحماس كتلميذ حفظ درسه ولكنه نسي اول كلمة منه . لا ، لست من بلدته ، ولكنني اقيم فيها بحكم وظيفة والدي . ان جذوري تمتد هناك ، في طرابلس الفيحاء ، احدى قلاع العروبة الصامدة في لبنان . تركني انكلم ، ولم يقاطعني . لعله خشي ان يعاودني انبكم قبل ان اتم فكرتي . حدثته عن يومي هذا، عن المي لاحتقار العالم لنا ، لنعمته ايانا بالمتوحشين وبالمتخلفين ، عن عدم ايماننا بانفسنا . .

كان مطرقا . وحين نظرت اليه ، لاحظت انه كان يأخذ كلامي مأخذ آجد . وحين سألته ماذا ينبغي ان تفعل ، قال : علينا ان نناضل . ان قضيتنا شاقة ، وان اعدادنا كثر ، في الداخل وفي الخارج، وطريقنا شائك وطويل . ولكنه كان يؤمن باننا سنصل . وقال لي انه لهذه انفاية يصدر مجلته .

قام وقدم لي نسخة . قلبتها . اكسد لي ان باستطاعتي الاحتفاظ بها ، واذا اردت ارسلها لي . سألتني عن عنواتي . حين هممت بان اجيب انتصبت امامي قافلة من الاسئلة ينبغي ان اجيب عليها حين تصلني المجلة الى البيت . قلت بحسب : لا داعي لذلك . اجفله . ولكنني عللت هذا بانني سوف استقر هنا ، في اول المسام الدراسي . سألتني باهتمام : اين ستتحققين ؟ قلت : سأقرر اليوم : اما الادب الفرنسي او الفلسفة او الادب العربي . قال : الفلسفة ، ربما تناسبك اكثر . قلت ، في هذه الحالة سأتحقق بالمعهد الفلاني . قال وهو يشير بيده : عظيم . انه قريب جدا . وحين وفتت اريد الانصراف . قال لي : مهلا . سأقدم لك روايتي . وامسك قلمه وانتظر ان اذكر له اسمي . ولكنني انصرفت من غير ان اودعه . ناداني . قلت : سأخذها بلا اهداء . قال بفضب : يمكنك شراءها من السوق اذن . ثم تراجع وأردف بلين : تفضلي . ولكن يده ظلت ملتصقة بصفحتها الاوتى وظل القلم بين اصابعه . قلت وانا اقترب من مكتبه : قل لي قبل ذلك ماذا تريد ان تكتب . قال : هذا يتعلق بي . واذ رأى الامتقاع في وجهي قال : اهداء للانسة ، اليس لك اسم ؟ وكتب اسمي على نسخة من اول طبعة من « الحي اللاتيني » .

اخذت الكتاب . ما ازال احتفظ به . لقد مرت على ذاكرتي عشرات التواريخ ، ونسيتها . وظل ١٧ آب ١٩٥٤ مستعصيا على النسيان ، كشهادة ميلاد ثانية .

قبل ان اغادر مكتبه ، سألتني ان كنت اريد المساهمة في تحرير المجلة ، واعطاني قصة قصيرة للترجمة . حملت اوراقتي وكتابي ومشييت . واذ وصلت الباب سألتني : « متى تعودين ؟ »

وعدت بعد شهر . وحين رأني شع فرح حقيقي من عينيه . بادرتني على الفور : لقد تأخرت . اجبته : لم يكن لدي سبب للمجيء من قبل . احتدت لهجته وقال : ولماذا جئت اليوم اذن ؟ قلت : انه آخر يوم للتسجيل . علق : ولماذا تتركين البت حتى آخر يوم ؟



فايده مطرجي ادريس

اكبر من امكانياتها . وليس وراءها ، كما ذكرت ، من يدعمها . فهل يمكنك ان تستمر طويلا ؟ اجابني ، وقد ارتاحت نفسه ، بأن الاهر يتوقف على عزمه وعلى قراره .

كنا نلتقي بين فترة وأخرى عن طريق « الصدفة » دائما . كان يحدثني عن مشاريعه ، عن أعداد خاصة ينوي اصداها ، عن مقال نشره ، عن كتاب يترجمه ، عن آخر ينفذه وعن تجمع أدبي يسهم به . ذلك كان محور تفكيره ، وهذا هو عالمه : عالم منسجم ، لا ازدواجية فيه ، وان كان عالما مشحونا ، قلقا ، مضطربا .

فكرت ذات يوم ، بعد حديث دار بيننا : ما شأنني بهذا العالم ؟ كنا في أوائل تشرين عام ١٩٥٤ حين شكنا لي من ان مجلته تمنع في العراق . قال : تصوري أية شروط تريد ان تفرضها الرقابة : « ان لا نشر لاي شاعر عراقي الا ما كان متعلقا بثقافة والادب فقط ، الإبتعاد عن نشر الرسائل والقصائد ذات الصبغة «الثورية» او التقدمية ، الإبتعاد عن نشر اي شيء يتعلق بالعمل والعمال » . سألته بشرود : وماذا ستفعل ؟ اجاب بغضب : ماذا سأفعل ؟ سأرد بالطبع . وأخرج من جيبه اوراقا وقرا : « هذا الارهاب الفكري » . وحين وصل الى قوله : « لا بد ان القارئ يضحك الآن كما ضحكنا ويتساءل : اذا لم نتحدث « الآداب » عن العمل والعمال ولم تنشر قصائد وطنية « ثورية » وتقدمية ، فعلام تصدر ولماذا تواصل جهودها ؟ انتظر حكومة العراق ، واية حكومة عربية اخرى ، ان تخصص « الآداب » صفحاتها لتمجيد الاوضاع القائمة ، ولا سيما في العراق ، ولكيل الثناء لحكومة تخنق اتحريرات وتعطل الصحف بلا تمييز وتهدد بتجريد الجنسية و... » كنت استمع اليه مصعوقة . هذا الشاب الرقيق ، الدمث ، كيف تحول الى هذا العنف والصرامة ؟ أية طبيعة هي طبيعته الحقيقية ؟ وتحاورت مع نفسي الدقائق . وتوصلت الى تلك القناعة : ما شأنني بهذا العالم ، ولماذا افحم نفسي فيه ؟ وقدرت ذاتي ، فوجدت هذا العالم اكبر مني واشمل من هوموم صغيرة تراودني . انه ينتمي الى عالم الكبار ، وأنا ما ازال طفلة . وعجبت كيف تعلق بي .

تأخر استاذنا ، فتأخرت ساعة الدراسة . وحين خرجت من المعهد ، متوجهة الى موقف السيارات ، لاحظت ان « مكتبه » كان ما يزال مضاء . انه هناك . تابعت سيرتي . ولكن امطارا غزيرة هطلت فجأة فوق رأسي ، وهبت عاصفة من الريح الثلجية جعلتني غير قادرة على المضي . كان الماء عند تقاطع الارصفة يدخل في قدمي ، وكان شعري الطويل يسيل مع المياه . حاولت الاحتماء بأي مكان . ولكن المحلات كانت مغلقة والابنية

اجبت بأنني كنت أفكر . فأنسا لا احب ان اقرر مصير دراستي على عجل . سألتني ساخرا : وهل كل قراراتك تطلب مثل هذه الروية والتفكير ؟ لم اجد في هذا السؤال ما يثير اهتمامي ، فلم اعلق عليه . وانما قدمت له اوراقا ووضعتها على مكتبه . وظللت واقفة قبالتسه . قلبها . قال : اولا الخط رديء جدا . ثانيا ينبغي الاتكتبي على قفا الورقة ، فليس هنا مجال الاقتصاد . ثالثا (قالها بغضب) : انك تخطئين في النحو . واستمر في القراءة . كدت ابكي . منذ شهر وأنا اعمل جاهدة في ترجمة هذه القصة . لم يسبق لي قط ان تعاملت مع نص بهذا الطول وبذلك الصعوبة الناجمة عن ضبايصة تلف جو القصة واسلوبها . قارن بين النص والترجمة ، وعلق : انك تفهمين الاصل . هذه خطوة تبشر . وبعد الاوراق قائلا : سأنظر فيها فيما بعد . ولكن كان يهمني انا ان بيت فيها الآن . قلت : الملاحظة الاولى والثانية لا اهمية لهما . اما الثالثة فليست خطرة الى هذا الحد . قاطعني : بل أخطر مما تتصورين . انها قضية لا يمكن التساهل فيها على الاطلاق . ان قواعد اللغة هي دعائمها . فاذا كانت الدعائم هشة انهار البناء . ينبغي ان تبني على اساس سليمة ، ان نعود الى الاصول ، الى الجذور . قلت : ليس اللغوي بالضرورة اديبا . قال : ولكن لا يمكن للاديب ان يكون اديبا اذا لم يتصالح مع اللغوي .

فوجئت ذات مساء ، وكسالت دراستي ليلية ، بالمديرة تستدعيني لتسلمني رسالة . اخذتها فوجدت فيها سطرا واحدا وتوقيعا . لم يسبق لي ان شاهدت مثل هذا التوقيع . وتذكرت بلي ، مرة واحدة . اما السطر فكان يقول : « لماذا لم تأتي . انسي انتظرك » . طويت الرسالة . وحررت أين اضعها . ان ضبطها أحد من اهلي فسيعلقون : لقد بدا الخير منذ الأيام الاولى .

لم اذهب . كان لدي شعور خفي بأنني قد اتورط في امر لن يكون في نهاية الامر لصائح دراستي . ينبغي الا افكر في الوقت الحاضر على الاقل بنشاط عدا النشاط الاكاديمي . كان هذا هو قرارني النهائي . ولكنني وأنا مفادرة معهدي رأيت . ناداني وقال : انها صدفة جميلة . شككت في الامر ، وقد اكدت لي ذلك ابتسامته . فلم يكن يريد ان يكذب علي . سألته : ماذا تريد مني ؟ قال : يمكننا ان نتحدث . قلت : الوقت متأخر وأريد ان اعود الى البيت . سألتني أين اقطع وعلق : انها الطريق نفسها . رافقتني . لم يحدثني عن نفسه ، ولم يسألني من امري شيئا . كان يتكلم عن مجلته ، وعن الحملة المركزة التي تستهدفها في الداخل وفي الخارج ، وعن المضايقات التي تلحق شخصا به . قال ولكنه لن يتراجع . وسوف يقف ، ولو ظل وحيدا ويصمد . علق ، وكنت قد قرأت افتتاحية العدد الاول من جديد . ولكن طموحات المجلة

أحسست بعوالم من الجليد تتكسر في أعماقي ، وبتواصل
أثيري اكتشفت ما يجول في نفسه وما يضطرب في ذاتي .
كان حبا قويا جارفا نما ببطء وبخفاء ولكنه اللحظة
ينفجر .

رأيت هذا المساء غارقا بين أوراقه . حبيته فهز
رأسه وتابع قراءته . انتظرتة وأنا اشغل نفسي
بكتاب . ثم ما لبثت أن أحسست بدموع في عيني .
وفكرت . أن عالمه لا يسعني . وأستنتجت أن حبه لي
كان عابرا . وقارنت بين هذا الواقع - الحب وبين الحب
الذي صورته في رواياته . لعل هذا هو الحب الذي
أحبته فيه والذي ينصرف فيه العاشق الى حبيبه فلا
يشغله عنه أي هم . وساهم في قناعاتي جنو الروايات
الذي عشته حلما وتمنيته واقعا . ولربما حين ارتضيت
حبه وتمت خطبتنا ، كانت هذه الرغبة اللاواعية في
أعماقي هي دافعي اليه .

أمسك وجهي بين يديه وقبلني وهو يقول : لقد
ظلمتك يا صغيرتي . ولكنها حياتي ، ولا مجال للتخلي
عنها . الا يمكنك أن تتكفي معها ؟ كنت أريد أن أقول له :
أما أنا ، وأما هذه الأوراق . ولكن صوته كان صادقا ،
مكشوبا ، وكان مع حسمه حنونا . وتراءت لي حياتي .
كانت آفاقها ضبابية ، غائمة ، وكانت الاوهام والخيالات
ترسم واقعها ولا تحدده . أفهمني ان المجلة تن تكون
منافسة لي . فهي طفلة ، ما تزال في سنواتها الاولى .
وأما المستقبل ، فسقطعه معا ، وبامكاننا ان نعتبر المجلة
أولى ثمرات التقائنا . ستكون بنتنا الاولى . الا تحبين
الاطفال ؟

كانت « الآداب » تحتل غرفة من بيتنا . فامتزجت
بحياتنا اليومية وامتزجنا بها . كسان باستطاعته
أن يعمل حتى ساعات متأخرة من الليل أحيانا ، وأحيانا
أخرى كنت أراه جالسا خلف مكتبه قبل طلوع الفجر .
وكنت أنا اتدرب لمساعدته .

كانت امكانياتنا المادية ضئيلة : ما يربحه من ساعات
قليلة من التدريس أو من ترجمة بعض كتب أو القاء بعض
الاحاديث في الاذاعات العربية . ومردود بسيط من كتبه .
ولم تكن المجلة تعود علينا بأكثر من سد نفقاتها . وكل
ما كان بإمكاننا أن نفعله ، في هذا الظرف ، أن نعصر
النفقات حتى أصبحت جزءا من مصروفنا ، جزءا من
خزيننا .

ولكن المشكلة كانت تتفاقم كلما ازدادت مسؤولياتنا
العائلية ، وكلما ازداد المنع في البلاد العربية . وكنا أكثر
ما نتمرض له في العراق . كانت سوقا رئيسية . وكان
كثير من كتابنا وقرائنا هناك . وكان القمع والارهاب

كلها بلا رفوف . انتظرت سيارة تحت المطر . قلم تمر .
خطرت ببالي فكرة : سأنتظر عند مدخل بنايته ، الذي
كان بابها ما يزال مفتوحا ، حتى أعر على سيارة .

ما كدت أصل ، حتى سمعت وقع أقدام خلفي .
تملكني ذعر حقيقي . كدت أبكي . الدنيا ليل ، وأنا غريبة
في هذه المدينة وخائفة والبرد ينفذ الى عظامي فتأخذني
موجة من الارتحاف . لم التفت الى الوراء . واقتحمت
مخيلتي صور الطفولة المليئة بأشباح الرعب والجريمة .
أخفيت رأسي ، واختصرت جسدي . فجأة تقدم وجهه
مني ، قال متعجبا : أنت ؟ ووضع يده على شعري .
قال : انك مبتلة حتى الجلد . أحسست بيده كيد أمي
الحنون . حدثت الي وسألني : أنت تبكين ؟ كنت عاجزة
عن الكلام . أمسك بيدي وقال : تعالي استريح قليلا .
رفضت . انه وحده . والدنيا ليل . قال : ولكنك
ستمرضين ! فكرت . ليس هذا مهما . تركني ووقف على
الرصيف . انتظر بعض الوقت . لم تمر أية سيارة .
وكان المطر ما يزال يتدقق كالشلالات . ناديت : ستبتل
أنت أيضا . قال : ما العمل ؟ وحزم امره : تعالي . وتقدمني
الى المصعد . لم الحق به . سألني : أنت خائفة ؟ لم
أجب . كنت ارتجف بردا وضعفا وخوفا .

في مكتبه ، قرب المدفأة الكهربائية مني . ظللت
واقفة . كانت الابخرة تتصاعد من ثوبي وتغلطني بجو
ضبابي . انحنيت قليلا وجففت يدي . أحسست بدفء
يتسرب الي . هذه المدفأة هي كل عالمي في هذه
اللحظات .

ثم تنبهت له . كان واقفا يرتب أوراقه . فأغضضت
طرفي . بعد لحظات نظرت اليه . كان أمام النافذة ينظر
الى الخارج . فجففت شعري . ثم رأيت يذرع الغرفة
رواحا ومجيئا . لاح لي بطله أباريسي فعاودني الخوف .
أزال الشك من عيني . قائلا : يبدو ان المطر لن يتوقف .
يجب أن نتدبر امرنا .

خرجت قبله . ناداني ضاحكا وقد أفرحته براءتي :
يمكنك أن تأخذي هذه المظلة . ثم أردف : من الافضل أن
أوصلك . وسرنا معا ، تحت مظلة واحدة . ثم خلع معطفه
ووضعه على كتفي ليحميني . رفعت آتية عيني لأشكره :
ستبرد أنت ، قلت . قال : أنك مدهشة ، طفلة مدهشة .
ولامست يده المشتعلة وجهي برفق . كسان احساس
غريزي يفاجئني : انه يكبت نفسه . لم يشأ أن يستقل
ضعفي وخوفي .

ومضيت الى جانبه تحت المظلة ، يراودني شعور
انني سامشي طويلا الى جانبه ، وتحت مظلته . . .

لم يكن لديّ نهارا أي عمل أقوم به . فقد أردت أن
أصرف نشاطي كله في نطاق المطالعة والدراسة . اقترح
عليّ ذات مرة أن أساعده . لم أجب . وحين نظرت اليه ،

يجثم في كل مكان . ومن اقية التعذيب ، ومن خلف السجون ، ومن كل المنافي ، كانت تصلنا قصائد مهربة أو قصص أو مقالات . وحين كنت أعترض على نشر بعضها كان يجيب : لن اهادن . لن اخون هذه الاصوات . ينبغي ان تكون على مستوى تضحياتها ، ان تكون صدى لها حتى آخر مكان تصله « الآداب » .

كنا ننشر ونغامر . وكان الازهاب يحول بيننا وبين ترجيعات هذه الاصوات . ولكن لنعترف انه ، حين كانت تصل ساعة تسديد الفواتير ، كان الزهو يفادره ، وكان هم حقيقي يربض على صدره ، فأشاركه اياه .

وجاءنا اقتراح من بعض اصدقاء لنا من العراق (1) . كانوا يريدون ان تصلهم المجلة . قال بعضهم اذا لم يكن بالامكان توصيل افكاركم مئة بالمئة ، فمن الافضل ان تقنع بالتسعين . واقترحوا حلا : يمكننا حذف ما يمنعها ، كتدبير مؤقت . ولكنه رفضه اولاً . واعترف انني الححت عليه الحاحا شديدا حتى وافق على مضمض ، اذ رأى انه لم يكن امامنا اي منفذ ، والديون تتراكم وترهقنا ، الا اغلاق المجلة . وكان هذا الامر مستحيلا بالنسبة له . وكان تخلي « الآداب » ايضا عن صوتها الحقيقي يعادل احتجابها . كانت المعاداة صعبة . وللخروج من المازق ، ارتأينا ان تظل « الآداب » تصدر بحجمها الطبيعي الذي ترسل نسخ منه الى العراق ، بينما نتحمل اضافة ملزمين ينشر فيهما ما كان مفروضاً ان يوزع بين صفحات العدد ، مما يشكل المادة التي قد تؤدي السى المنع . ولكن ان حلت هذه المشكلة ، جزئياً على الصعيد المادي ، لفترة قصيرة ، لا تتجاوز ثلاثة اعداد أو اربعة ، فانها قد خلقت لنا ازمات نفسية حادة . لم يكن مقتنعاً . وكان يحس نفسه مجزأ . وتفاقم قلقه حتى تحول الى ارق . كنت استيقظ احيانا فأجده جالسا في سريره يفكر ، او ذارعا الفرفة بعصبية . ثم لم يعد باستطاعته ان يتحمل . وتم يعد السكوت ممكنا والازهاب يتفاقم في العراق خاصة . قال لي : سنواجه السفاحين . وتوالت مواد « الآداب » مستنكرة ، منددة ، داعية للثورة ، محملة بأصوات الثوار . سدت في وجهها الاسباب العادية ، ولكن روحها كانت تتسرب حتى السجون . كنا نقطع بعض اتصالات او القصص ، ونرسلها قصاصات عبر رسائل خاصة او مع اصدقاء ، فيضيع بعضها ، ويصل بعضها الآخر فتتسخ وتوزع كمنشورات سرية . وحين كان يقرأ رسائل الأصدقاء مشيدة بسدور « الآداب » كانت سعادة حقيقية تغمره ، وكانت الحياة آنذاك تستحق ، في نظره ، ان تعاش .

كانت التجربة قاسية . وبلغ من شدة تأثيره بها ان

(1) على رأسهم بدر شاكر السياب . أنظر رسالة له بهذا المعنى في كتاب « رسائل بدر شاكر السياب » جمع ماجد السامرائي ، منشورات دار الطليعة .

عقد بينه وبين نفسه اتفاقاً لم يحد عنه منذ ذلك الوقت : لن يهادن ، لن يراوغ ، سيقول الحقيقة وينشرها مهما كان الثمن ، وسيكون بجانب الاديب الحقيقي وبجانب حريته وحرية وطنه الكبير . فاذا صادف ان ترافقت سلطة قومية مع خطواته كان موقفه منها ايجابيا ، والا فانه بشكل حاسم مع الاديب ضد السلطة . هذا القرار لم يترك لي يوما فرصة لاناقشه فيه ، ولم يترك مجالاً لاي نداء أو ضغط من قبل اصدقائه ليتصرف حسب الظروف ويتكتيك . كان قاطعاً . كل الحقيقة . انها لا تتجزأ ، وأيا كانت الظروف . ان الفكر مبدئي . أما التكتيك فهو عمل السياسيين المحترفين . ولكي يحافظ على هذه المبدئية في التوجه قال لي : ستصرفين أنت لشؤون المجلة نهارة ، وأنا سألتحق بالتدريس ، وأتابع أمرها في الليل . لن ادع « الآداب » تكون مورد رزقنا . بل يمكننا ان ننفق عليها حتى نجتاز هذا الظرف . لن نكون عبداً لخبري .

كان يستيقظ باكراً جداً . ينظم أوراقه ويقرأ مادة او يصححها . واذ تحين الساعة السابعة يستقل سيارة ويتوجه لتدريس التعريب في معهد انشاء الفرنسيون في قرية لبنانية لتدريب بعض الموظفين الفرنسيين على اللغة العربية . ولم يكن يعود الا ظهراً .

لكنه لم يلبث قليلاً حتى قال لي : لست لهذه الحياة خلقت . لم يكن يحب التدريس . بيد انه كان يعتبره عملاً شريفاً . كان ينسجم مع اهدافه . كان عليه ان يحدث تلاميذه بالعربية . كان بعضهم يتعاطف مع قضيتنا . والبعض الآخر يحاول ان يقتنع ، فيما يقف فريق مناهض لهذا الاستاذ الذي يتجاوز مهمته . ولكن الامور كانت تمشي كما يقولون . وذات يوم ، جاء ثائر الاعصاب مضطرباً . لم أسأله ما به . قال بأسى : كان عليّ الا ارتبط بأسرة لاكون حراً . واجاب نفسه : ولكن ذلك كان يكون لا بشريا ولا انسانياً . كان متعلقاً بأسرته . وكان يرى فيها امتداداً لذاته وتمويها لنضاله في الحياة ، يركن إليها ، فتتسرب اليه ساعات من السعادة والامل في صحراء هذا العالم المضطرب . وسألني ان كنت قد سمعت بآباء العدوان الثلاثي . قلت : اجل . قال : وما تتوقعين ان يكون موقفي ؟ قلت : ان تترك عملك . قال : هذا ما فعلته بالضبط . لقد قدمت استقالتي . لا مبرر لعملي بعد . لقد نسف العدوان الثلاثي كل امل . وهؤلاء الذين أدرّسهم يحملون وجوه من يقتلون ابنساء قومي وامتي . حاولت ان اناقشه في بعض الظلال . ولكنه رفض الاستماع . كان حاسماً . ان اي تردد خيانة . دخل مكتبه وراح يخطط تعدد يندد فيه بالاستعمار الفرنسي ويشيد ببطولة المواجهة العربية ويدعو اصدقاءه لعقد اجتماعات طارئة لمساندة القضية .

بعد أيام اتاه أحد الطلبة . أبلغه ان مدير المعهد - وهو مستشرق يحترمه - قد علق الدروس ، انسجماً

العربية في وجه الهجمات الشرسة للاستعمار والرجعية العربية . فمقابل نوري السعيد ، واندوان الثلاثي ، كان المارد العربي يؤمم الفناة ، وينتصر على العدوان ، ثم يحقق اول حلم راود الامة العربية وهو الوحدة . كانت « الآداب » حاسمة الملامح . ففيما كانت تخوض معارك ضارية مع اعداء الثورة على الصعيد الثقافي ، كانت تواكب الثورة الصاعدة ، الثورة الامل .

قلت له ذات مرة ، وكانت افتتاحيته مليئة بايمان لا يحد بقدرة هذه الثورة : « كلامك هذا سوف يثير شكوكا . انت تعلم ان معظم الصحف مأجورة . أخاف ان تلحقك التهمة » . قال : « هذه قناعاتي . وقناعة ملايين الحناجر التي تسمعين كيف تتفجر . هل هي مأجورة ؟ لماذا لا يمكن ان اكون واحدا منها ؟ هل خوفي من تهمة باطللة ينفي ان يحول بيني وبين ما اراد واجبا متمما لرسالة « الآداب » ؟ » .

مضت سنوات ، وضعف المارد لكثرة ما اصابه من سهام ، وتخلي عنه الكثيرون . صمتوا او هاجموا . وعلى الرغم من الانتقادات التي كانت « الآداب » تواجهها ، ظلت وفية لذكراه ، معترفة بحقه كرمز لاجمل وانبل وأشجع سنوات عرفت حياتنا . حدثان في تلك الفترة لا يمكن نسيانها : الوحدة والانفصال . في الاولى تتحقق السعادة والحلم ، وفي الثانية الهزيمة وبدء الانهيار والالم .

عجيب امر هذه الامة التي ننتسب اليها ، والتي ، على رغم ما يلحقنا فيها من مأس وآلام ، نظل متحدين بها ، عاشقين لها ، مؤمنين بمستقبلها . ان صمودنا هذا الطويل ، صورة لصمودها ، وعنادنا ، مثال لعنادها . ما يكاد السهم يصيب عضوا منها ، حتى يخيل لنا انه اصاب منها المقتل ، فاذا هي تنتفض في مكان آخر من هذه البلاد الشاسعة ، فتضمد جراحها ، وتنتصر على الموت وتستأنف المسير .

عام ٥٨ ، اندلعت اول ثورة في لبنان . كان هذا البلد القوي الضعيف هـدف الاستعمار . ففي بعض مناطقه ، كانت تنطلق وتناجح أعماق وأعنف دعوة لتأييد الوحدة والاشتراكية . وكانت نواة ثورة واعية شاملة تتكون فيه لتمتد الى سائر اقطار العروبة . وفي غمرة الزهو والانتصار ، وقد حملت « الآداب » الكثير من هذه الملامح ، ضرب الاستعمار ضربته ليقتل الرضيع في مهده . ففي الوقت الذي كان لبنان يحضن الثورة ، كانت الاخلاف الرجعية في الداخل والخارج تتآمر . وحدث هذا الانقسام الطائفي المريع وشهد الشعب تذابحا لم يعهده من قبل . توقفت « الآداب » في تلك الاثناء . فقد

مع الروح العامة التي دفعته لانشائه . كان هذا الطالب يدعى عبد الله ، وهو من اصل جزائري ، وكان يعمل في الجيش الفرنسي ، ويحدثه عن بلاده التي لم يزرها ، عن حنينه اليها ، عن ثورة لا بد لها يوما ان تنتصر ، عن رغبته في الالتحاق بها ، عن عجزه هذا القاتل . قال له : جئت لاودعك . ان آلامي لم تعد تحتمل . لقد ساعدت انت في اشغالها . سأترك أسرتي وسألتحق بهم . سأعود اسي جبال وهران .

كان وداعا مؤثرا . وهو يضافه ، وعده ان يكون دوما الى جانبه ، ان تظل مجلته دعما لثورته ، وتنديدا بالمستعمر . وكانت « الآداب » قد تبنت الثورة من قبل بفضل قراءتنا وبفضل ما امدتنا به كتابنا واصدقاؤنا الجزائريون من معلومات وحقائق . وفيما كانت الثورة تتقدم ، كانت « الآداب » عبر قصائد شعرائها ، تفني مع الشعب العربي اجمل ملحمة من ملاحمه .

وانسجاما مع ذاته ، وعلى صعيد واقعي ، انضم الى الجبهة الشعبية لنصرة الجزائر فكان سكرتيرا لها . وراح ، مع رفاق له ، يبشر بالثورة ويدعو لمساندتها . - لقد حررت نفسي . فحررت مجلتي .

وحين اعلنت الجزائر استقلالها ، دعي الى اول حفلة تقام هناك احتفالا بالحدث الهام . امر لا يصدق . امر اجمل من الخيال . هل باستطاعته ان يصير فينتظر تلك الايام التي تفصله عن اللحظات التي ستطأ قدماء فيها ارض الجزائر ، تلك الارض التي امتزجت بدماء مليون شهيد ؟ كنت اراه في تلك الايام يترنم بالنشيد الوطني الجزائري ، وكانت الكلمات والالحن تنبض في صوته ، تحمل نضارة الولادة الاولى .

منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٢ ظلت الثورة تعيش في نفسه وفي « الآداب » ، وحين انتصرت ، حق له ان يشارك بانتصارها ، كواحد من ابنائها فيقول : « البشري لنا ايها الجزائر العظيمة ، يا ارض البطولات الخالدة » . و « تلمس قدمي ارض الجزائر فيتحقق الحلم الاثير ، ونفيم عيناى بفشاوة من دموع حين يرف فيهما علم الجزائر فوق بناء المطار . لقد ولدت اذن بنت المخاض العسير » . هذه الكلمات كانت اعجز من ان تصور طفرة السعادة الحقيقية التي كان واقعه يعيشها .

من ارض الجزائر ، حمل لي زجاجة صغيرة مملوءة بالتراب . تلك كانت هديته ، اجمل هدية قدمها لي . وكان يعرضها على من يزورنا من الاهل والاصدقاء . اكنا سدجا ؟ ربما اعتقد البعض ذلك . اما نحن ، فكنا نشم رائحة دم مليون شهيد مجبولة بالتراب ، ونحس فيه نبض اللهفة والامل ونشوة النصر واختلاجات اللحظات الاخيرة لشباب نذر نفسه للموت من اجل ان تحيا الجزائر .

شهدت « الآداب » خلال الخمسينات تفجر الثورة

وفا هو الآن سعيد كأشد ما يمكن للمرء أن يعانق السعادة . لقد أعطته هذه الأمة تعويضاً . وكمراً لنفسه ، ولجيله ، عكست « الآداب » هذا المنعطف الخطير من تاريخ العرب ، يوم قامت ثورة ١٤ تموز في العراق .

لماذا كتب على هذه الأمة ، في هذه السنوات من عمرنا ، أن تشهد كل هذا التناقض المرير والمدمر حيناً والرائع والأخلاق حيناً آخر ؟ ننام على واقع ، ونستيقظ على واقع آخر . نحلم حلماً جميلاً ، ونحقق زمناً بشعاً . نمشي مع هذا التيار ، نواكبه ، نحمله بعيوننا وقلوبنا ، ثم يأتي الأعصار فيطيح به . كأموج البحر كانت حياتنا ، زاهرة ، متلاطمة . كان البحر ، على امتداده ، مجال أحلامنا ومربع آمالنا . ولكن الشاطئ كان هنا في آخر الطاف ، يحد أفقنا ، ويختم كل شيء . ولم يكن الشاطئ آمناً .

لا أذكر يوماً انه غفا إلا وأصوات الراديو ما تزال مرتفعة . كان عليّ دائماً ان أسكت أزراره . وكان عليّ غالباً ان أهزه في الليل لاقطه . كانت مآسي النهار وأحزانه تتجسد ليلاً كوابيس مريضة ترض على صدره وتضيق عليه الأنفاس فيصرخ ، فألقاه بين ذراعيّ ، وأضيء النور ، فيقص عليّ كابوسه ، كابوس هذا الوطن ، وهذه الأمة التي تغفل حياً في كل ذرات كيانه ، فكانت هي مقياس سعادته وشقاؤه . وكان هذا الكابوس الليلي يتجسد ، بعد تفكير معذب ، في موقف صريح وحاسم تجاه الأحداث تعبر عنه « الآداب » افتتاحية أو قصة . هذه الكوابيس ، عرفها ، يوم نزلت الصاعقة على رأس العرب ، عام ١٩٦٧ .

في ٥ حزيران كان في القاهرة . ولايام ، ظل يعتقد ان النصر حليفنا . ثم انكشفت له الحقيقة . قالت لي אחتي المتزوجة من مصري ، أنهم نقلوه من الفندق الى منزلهم . لم يكن يصدق النبأ ، وكان حزينا حتى الموت . ثم قبع أياماً سجين غرفة لا يسمح لاحد بأن يدخلها . وانقطعت الاتصالات بيننا . واغلقت المطارات . كان وحيداً ومهزوماً وتعبساً . منذ ذلك اليسوم ، أصيب بضغط دموي ، وتسلس مرض السكري الى دمه . وقد شفي مع الايام من الثاني اذي كان نتيجة الحزن . اما الاول فما زال يعاني منه .

وحيث عاد الى بيروت ، اغرق نفسه لينسى ، في عمل معجمي ظل اربعة اعوام يستغرق وقته وتفكيره ، وكان ذلك ، كما لاحظ الكثيرون ، على حساب مستوى « الآداب » .

وبالزعم من ذلك ، فانه لم يستسلم للهزيمة ، لان الشعب العربي تم يستسلم لها . وعاد الى المجلة بمنحها من فكره وقلبه وروحه ، مؤكداً لي ، المرة بعد المرة ، ان المجلة ستبقى ، فهي مجال تنفسه الوحيد : « لولاها

كان مقرها في قلب النار . ولكن نشاط رئيسها لم يتوقف . انضم الى العناصر المؤيدة للثورة بمدى ما يمكن للكلمة أن تفعل ابان الحرب . كان يعتبر نفسه مجتهداً ، معرضاً لجميع المخاطر التي يتعرض لها المقاتل . قال لي ذات مساء ، وكانت اصوات الرصاص تطلع : « ساعة وأعود . سأرسل مقالي الى الجريدة » . قلت له : « ولكننا لن نريح معركة بكلمة » . اثاره تعليقي . كان جاداً في مهمته . كان يؤمن بأن الكلمة معادلة للبندقية ، ينبغي أن يمشياً معها .

وكان يحزن لاضطراره الى توقيف « الآداب » . ولكنه كان يقنع نفسه بأن كل صحيفة تعبر عن أهدافه ، هي صحيفته . وحين انتهت المعركة ، ضمت « الآداب » هذه الكلمات - الشهادة لفترة ما كنا نتوقع يوماً ان يدور الشر فيها سوف تنمو لتتفجر بعد سبعة عشر عاماً حرباً مدمرة .

خرجنا من المعركة مجرحين . وخسرت « الآداب » بعضاً من كتابها وقراءها في الداخل . لقد أقرزت المعركة الاصوات . وحددت ملامحها . المهم ان المجلة استأنفت سيرها ، وتجاوزت وجوها كانت مخادعة ، وأخسرى محايدة ، لتؤكد التزامها بقوى التحرر والثورة في الوطن العربي .

لم يكن هذا الالتزام سيراً في بلد كلبان . بل كان الثمن باهظاً اقله أنك تعيش في بلد تحمّل في نفسك جراحاته ، من غير أن يصيبك ، كمواطن ، شيء من خيراته . كان هذا الشعور ينمو مع الايام ، وقد تفجّر فيما بعد . وكان فريق آخر يعلل ذلك بعدم انتمائنا الى لبنان ، وبامتداد جذورنا الى الخارج ، اتى الوطن العربي . لم يكن التشخيص صحيحاً . كان انتمائنا للبنان انتماء حقيقياً ، وحبنا له حياً عميقاً ، حب من لا يجد السعادة الا في زاوية معينة من العالم يختارها وفي بيت معين من جميع البيوت ، هو بيتك . ولكن نظرنا للبنان تخلف . أجل ، كنا نجبه في ذاته المنفتحة ، في جذوره الراسخة المتغلغلة حتى اعماق العروبة . كان عالمنا كبيراً .

ذات يوم من هذا العام دخلت مكتب « الآداب » . كانت اصوات هرج وصياح لم اسمعها من قبل تنبعث منه . فتحت الباب قلم اصدق ما تراه عيناى . رأته وسط عدد من الشباب يصفق ويغني ويضرب الارض بقدميه . ركض نحوي وأحاطني بذراعيه وأخذ يقبلي وقد ترقرقت الدموع من عيني . قال لي : « تعالي ! انها اجمل ايام العمر . لقد انتصرنا أخيراً . لقد انصرت الثورة » . ثم هداوا . وعرفني على اصدقائه . كان بعضهم من الشعراء المنفيين من العراق يعيشون في لبنان ، وكنت أعرفهم ، وبعضهم الآخر في طريقهم الى المنافي ، او هم من الهاربين من سجون التعذيب .

قبل ذلك بأيام ، كان حزينا لان المعركة التي خضناها في لبنان كانت توشك أن تنتهي بجراحات وبلا مقابل .

لاختنقت . انها حياتي ، وحياة آلاف الشباب الذين يعيشون حياتي » . وكان يترجم هذا التعبير واقعا في افتتاحيات عديدة يرسلها اليه ، عبر البريد ، ادباء تعامرا مع احداث الامة العربية كما تعامل هو . « تست بحاجة الى كتابة افتتاحية هذا العدد . لقد عبرت هذه القصيدة او هذه الكلمة او هذا المقال عن رأيي » .

لم يكن أي قرار نتخذه ، في تحديد موقف صريح ، يتم بسهولة . انه وليد ساعات وليال من التفكير والتدقيق ، وان كان انبعاته وليد انفعال سريع او رد فعل . في السنوات الاولى من « الآداب » ، كان الموقف يتطلب شجاعة وتضحية . ولكن الخيار كان محسوما . الابيض او الاسود . اما مع عناصر الثورة والوحدة او مع الرجعية والتخلف والتجزئة . ولكن مع تقدم الايام ، احدثت الالوان تقارب ، حتى كادت أن تمتزج أو هي امتزجت أحيانا بالفعل . واذ زال المستعمر الخارجي ، المكشوف الوجه والانياب ، راح ظل المستعمر الجديد ينعكس بأثف لون بدءا من اللون الأزرق ، الرمادي حتى بلغ أحيانا أن أصبح أبيض نقيا تقاء الثلج . وانهارت الثقة ، وانبدلت حرب الاخوة الإعداء ، وتكدست الهزائم فوق رؤوسنا . وضاعت ظروف كان بإمكاننا أن نستغلها ، وأهدرت طاقات عبثا ، وشرد الأدب والفكر نتيجة التضييق والخنق للحريات في أكثر من موطن ، وعلى فترات مختلفة .

خلال هذه الازمات الطويلة ، عانت « الآداب » ازمات عديدة خانقة ، مادية ومعنوية . ولكن المستقبل كان لنا ، كنا بعد كل معركة ، نلقي الجلد الميت . وكانت فورات هذه الامة تمدنا بهذا الدم . انها ابدا ترفض أن تموت وأن تدفن . فبعد الضربة الموحشة التي أعقبت كارثة ٦٧ ، انفجرت الثورة الفلسطينية فوجد فيها العرب الذين ما زالوا يؤمنون بالامل والمستقبل متنفسا لهم ، ووجدت « الآداب » فيها ومعها طريقا للصمود .

واكبتها لسنوات ، ودأقت عنها في احلك الايام والظروف ، ثم التحمت بها كطليعة للثورة العربية الحديثة .

في ايام الحرب الاخيرة ، كان الامتحان العسير ، سقطت الاقنعة انكثيرة التي كانت تزايد وتناقض . امام الخيار اتصعب لاذت بالفرار . وظللنا مصرين على اصدار المجلة ، رغم الحمم والقذائف التي تهدد وجودنا . الحقيقة ينبغي أن تعلن . وطبعنا عدة اعداد . ولكن الطرقات سدت برا وجوا . واختنقت « الآداب » بالمطبعة لعدة اشهر دون أن تتمكن من سحب ما طبع . كانت في قلب النار ، وكان الوصول اليها مستحيلا . خلال تلك الشهور التي طالت ، انصرف الى العمل الجماعي ضمن الثورة ، يشارك فيها بسلاح واحد لا يجيد استعمال سواه : الكلمة . ولكن الكلمة التي كان يصوغ منها بيانا او نداء او تحليلا لم تكن الكلمة التي اعتادها وارادها ان تفزو آفاق الوطن العربي . انها مثله ، سجينه هذا الشارع

الضيق الذي زرع بالموت والظلام والجفاف . ولايام عديدة ، خلال اكثر من عامين ، كان يقبع معنا في ممر ضيق من البيت لا يفادره أحيانا ليل نهار . القذائف تهاجم بيتنا من كل الجهات فتكسر زجاجا او تقتلع واجهات او تتجول الرصاصات في غرف نومنا وتستقر على الاسرة او تحفر لها مقرا في الجدران . العرب ، كان كل رصيدنا . ويوما فيوما تنهار ارادة الحياة فينا والصمود .

« لا ، لن اموت هنا موتا مجانيا . ان صوتي يخنق ، فأختنق معه . ان العالم يجهل قضيتنا . و « الآداب » ينبغي ان تحمل تلك الرسالة ، ينبغي ان تصدر من اية بقعة من الوطن العربي . كل ارض عربية ارضها . اما اذا سدت هذا الوطن بابه ، فسأرحل اتي أي مكان في العالم يرحب بصوتي » .

وقدر أن يرحل . اخترق النيران حتى المطبوعة وحصل على نسخة من كل عدد صدر ولم يوزع . طالت غيبته . وكانت اصوات الانفجارات تتوالى وتصدى . اشتعل قلبي . ليس اسهل من التفكير بالموت في هذه العاصمة المريعة . واكلني الندم . كيف تركته يذهب ؟ وحين عاد ، كنت كتلة من الاعصاب المنهارة . رأيتنه يحضر حقيبة يضع فيها بعض ملابس خفيفة . ويضع معها اعداده ويفلفها ويقول : عن طريق البحر سأرحل .

جمعنا . وردد علينا قراره : « لن أجبر احدا على مرافقتي . ربما كانت الرحلة عسيرة » . يومها بكيت . لا أريد أن اغادر وطني . رحل كثيرون ، وظللت انا مصرة على ابقاء . هنا انفتحت عمري . وهنا بيتي ، وهنا اهلي ، فالى اين ارحل ؟ اي مصير ينتظرنا في الخارج ، وكيف نعيش ؟ حاولت أن اقنعه بأن انقيوم سننشع ، وتعود الينا حياتنا . اغريرته بسعادته معنا ، رغم قساوة الظروف . هددته بتأنيب ضمير قد ينخره اذا ما تركنا ورحل . ربما لن نلتقي بعد . فقدت اعصابي ، فقدت منطقي ، فقدت اتزاني وأنا احاوره لكي يعدل . اتهمته انه يحب مجلته أكثر من عائلته . ولم يعدل . حمل حقيته وفتح الباب . لحفته . يا لعذاب تلك اللحظات . سماح يقفر من الغرفة المجاورة ، يعانق اباه ويرفض أن يتركه . « سأرحل معك » . ضمه اليه وبكيا معا . قال : « لا تترك أمك وحدها . ستكون رجل البيت » . ولكن الصبي أشد عنادا من أبيه . التصق به فاتحدا . ارادتين صلبتين ضد عاطفتي . ووجدتني مهزومة . ما تقع بيت بلا رجلين ؟ ما نفع وطن يرحل عنه اهله ؟

كانت الدموع تتساقط من عيني . وانا اجمع ثياب سماح واضعها في حقيبة صغيرة . ووجدتني أضع فيها بعضا من ملابسي . انهما بيتي ووطني . . ورحلت معهما . وانا اغلق آليات ، حاصرني فكرة دمرتي : هل سنعود فنفتحها ؟ وتذكرت ما كانت تردده اختي المتزوجة من فلسطيني : « ما زلت احتفظ بمفتاح بيتي بيافا » .

وخفت من أن نصبح لاجئين ..

كم من الاحزان عرفنا ! كم من القلق عانينا ! كم من هواجس حاصرتنا . ليالي باكملها لم نعرف طعم النوم . داخل الوطن ، كنا نشاهد الحرائق ونعيش مأساة . والفناها ثم تأخينا معها فأصبحت جزءا من وجودنا البشع . اما خارج الوطن ، فقد كنا نتحمل الآلام بسادية : كان الوطن يحترق في نفوسنا ويهدم ، فنهدم معه . يا وطني الحبيب ! اي جنون ارتكبته لكي لا افقد الامل بأن اعود اليك . لقد تركت فيك احدى فلذات كبدي رهينة بين يديك ، حين رحلت . تركت « رائدة » في بيروت الملتهبة ، فانقطعت عنها وعن اخبارها أسابيع ... « أيام وأعود ، يا حبيبتي » . وبكيت تريد اللحاق بنا . وضننت على مستقبلك الجامعي أن يضيع ، فرجوتك أن تصبري . ولكن أنا ، كيف أصبر ، كيف أبعد عن نفسي اشباح الحريق والموت ؟ ..

ايها الحقيقة ، ايها الكلمة التي ضمتها صفحات « الآداب » المهاجرة ، تم كان ثمنك غاليا . ها هو وجودك ووجودنا ، لأول مرة ، يتلاحمان ، يقفان معا ، ويشرعان صدرهما معرضين للموت والغدر ...

ثلاثة اشهر غيبنا ، خلال حرب السنتين ، احسستها دهرا . (من قال ان انتماءنا الى هذا البلد غير حقيقي ؟) وها هو السيف الذي طالما رفعنا صوتنا لنبعده عن اخوة لنا في الوطن العربي يطالنا ، فيخنق صوتنا ، ويحد من حريتنا ، ويضيق علينا الانفاس . الحقيقة ، كل اسحققة ، بعد خمسة وعشرين عاما من النضال ، لانستطيع ان نقولها ، بل نقولها وتحذف ، ونقولها فتحذف ، ثم نهدد بالاغلاق ... قهيننا لبلد الاشعاع والحريات ! ..

لم يكن الهم القومي في اتخاذ المواقف هو فقط ما كان يقلقنا في مسيرتنا . كانت هناك هموم اخرى يخيل للوهلة الاولى انها منفصلة عن قضيتنا فيما هي تتعلق بها في الصميم . من هنا كانت المعارك التي خاضتها « الآداب » منذ صدورهما ضد دعاة الحرف اللاتيني واللهجة العامية (وكان القصد منها في لبنان بنوع خاص القضاء على الفصحى ، وبالتالي على التراث العربي وعلى وحدة العرب في آخر المطاف) . كما تصدت لمجالات ظاهرها ثقافي ، وغايتها الحقيقية الدس على الثقافة العربية تراثا وحاضرا . واني ما ازال اذكر ذلك اليوم ، الذي دعيت فيه الى المحكمة . كان شيئا فظيحا ، ان يقيم رئيس تحرير مجلة ذات اتجاه مشبوه الدعوى علي بحجة فضح المجلة وسوء الظن به . تناقشنا طويلا ، هل نمثل ام نتخلف ؟ وشاركنا في النقاش اصدقاء لنا وارسل لنا بعض اكتاب وبعض القراء يدعوننا الى الصمود . وقررنا

ان نجابه وتصدى . ان الحق معنا .. وعند اول جلسة انهزم الخصم . كانت حججنا ووثائقنا ومستنداتنا تنشر يوميا في الصحف القومية التي ساهمت معنا في الحملة ، مما اضطر المجلة للتوقف : اذ بان انيابها العدو ، وانتشرت رائحة الدولارات منها .

قلت له ذات يوم ، ونحن نتصفح مجلة شعرية تصدر في بيروت : ينبغي الا تبدي رأينا بها . سيقال اننا نحارب ، لنبقى وحدنا في الساحة . ثم يرد . تابع القراءة . قال لي بعد ان انتهى : تخلي عن ضعفك وانهزاميتك . ليست القضية شخصية . انها قضية عامة . قضية مفهوم للثقافة العربية . من هذا المنظار يبدو أي تردد او تبرير خيانة لمفهوم الفن القومي الذي ندرنا أنفسنا له في هذا الظرف التاريخي الذي تجتازه الامة . اننا مسؤولون امام قرائنا وكتابنا .

لقد خلقت هذه المجاهبات لنا عداوات عديدة ، شخصية وعلى صعيد رسمي . وكان من نتائج هذه المجاهبات ، في بلد كلبنا كثرت فيه الارتباطات بالاجنبي ، اننا صنفنا ، مجلة غير لبنانية (وهذا غير صحيح) ، لاننا مجلة عربية (وهذا صحيح) .

اقرئي هذه القصة . واقرأها . ما رايك فيها ؟ وأدلي برأيي ، فيناقشه . في الماضي ، كان يقنعني اذ كنت أتلمذ على يديه . كان يشرف على تثقيفي ، القديم والجديد . الكتب العربية والاجنبية . كان يطبق علي موازينه الدقيقة في مفهومه الملتزم للثقافة العربية . ليس كل القديم . بعضه دفنه الزمن . أما الباقي فخالد . ولكن ينبغي أن ينظر اليه بمنظار العصر . انه هو الذي يمدنا بالحياة ، بالاصالة ، بالشخصية المميزة . نمتصه ونتمزج به ، فيفينا . الانطلاقة الاولى من هنا . وتكبر الساق مليئة بالنسغ وتفتح الاوراق . هنا يأتي دورنا في المعاصرة ، في الانتقال من الواقع دون التطابق معه لاستشراف المستقبل . كيف توفق بين التراث والحداثة ، اقول ؟ ليست العملية عملية توفيق . وانما هي عملية اختيار وامتناص حذرة . الانفاس في الماضي يوقنا في الرجعية ، وتجاهل الواقع يبعدنا عن عصرنا ، عن هموم مجتمعا . ينبغي أن ننفعل به حتى نظوره . أما الآداب العالمية فضرورية لاستكمال ثقافتنا الفنية خاصة تلك الفنون المستحدثة في ادبنا كالتقصه والرواية . ليس العيب ان نقبل عليها وترجمها . انها ملك الانسانية ، وبالتالي ملكنا . لقد قدمنا في الماضي قسطا وافرا وأسهمنا في دورنا الحضاري . ويحق لنا ، اليوم ، ان نأخذ ، بعد الكبوات التي الحقها بنا الاستعمار . ولكن المهم ، الا نصبح نسخة مكررة للاخر (كأكثر من مجلة صدرت في بيروت) . ان نظل نحن ، ولكن اشد تألقا وانفتاحا وغنى . وهكذا عكست « الآداب » وهي تقدم الدراسات العصرية تراثنا القديم ، آخر نماذج الدراسات الفنية والجمالية العربية منها والعالمية . كما كانت تخوض

معركة الشعر الحديث وتؤكدته وتشجع أشكالا جديدة
لل قصة القصيرة تفاخر بدفع اصحابها ، كما تقوم بعملية
استكشاف مستمر .

وأعترف ان هذه العملية تكلفني شخصا الكثير
من العناء . ان « الآداب » تعتمد كثيرا على البريد . أي
على ما يقوله لها القراء . وغالبا ما يكشف قارئ ما نفسه،
شاعرا أو قاصا . فيطرق الباب . عشرات من القصص
تردنا ، ومن انحاء الوطن العربي . انني اقراها حتى
النهاية . انها عملية ضميرية . معظم كتاب « الآداب »
الذين فرضوا أنفسهم فيما بعد مروا بهذا الطريق ، منهم
من تأخر ، ومنهم من سطع عند اول لقاء . لا أزال اذكر
تجربتي مع « أرجوحة » محمد خضير ، يومها قال لي
رئيس التحرير : هذا العدد ستحملين أنت وحدك مسؤولية
القصص فيه . وكنا قد نشرنا لاكثر من اسم لم يعرفه
من قبل قراء الآداب . وكانت قصة خضير جديدة ،
موضوعا وشكلا وتجربة . واقرني على انها مدهشة
(وكان قد قراها قبلي ، واحتفظ براهي . ربما ليمتحن
من جديد حسني النقدي) لقد نجحت تجربتنا معا .
واحسنت بسعادة كنتك التي عاشها المؤلف .

وقال لي : اننا مسؤولون ، مراقبون . دقيقي في
الاختيار . ومن بين عشرات القصص كنا نختار اربعم
قصص او خمسا يعاد انظر فيها أيضا . لماذا ، وقد
عرفنا الكتاب المجيدين ، لا نعلم عليهم فنستكتبهم ونوفر
على انفسنا جهدا ووقتا ؟
- لاننا اولاً لا نستطيع ان نحمل الدفع لكل من
نستكتب .

- لاننا ثانيا سنقطع عن هذا الشريان المتجدد ابدا ،
المتدفق بدم نقي ورؤية جديدة . معهم ، لن يصيبنا
الهمم ، سنظل قادرين على مواكبتهم وتفهم همومهم
الفنية . يوما فيوما نودع القديم ونستقبل الجديد . ولكي
لا نخون الفن العربي الجديد ، نتابع ، ونحن نلهث ، آخر
الانتاج العالمي الحديث . ان عملية المقارنة ضرورية
لتحديد موقفنا .

لسنا في المختبر وحدنا . ان القراء يناقشوننا
الرأي . كثير من الرسائل تحمل نقدا او وجهة نظر في
هذا الكاتب او ذلك الشاعر من دون ان يطلب نشر الرأي .
انها مصارحة ، او اقتراح ، او دعوة الى تبني هذا الموقف
او ذلك . تحس ، وأنت تتابعهم ، بتلك العلاقة الانسانية
الرائعة التي تربط افراد امة واحدة . لكن هذا الكاتب
يعرفك منذ امد بعيد . يقسو عليك او يلين ، ولكنه في
كلتا الحالتين يجبك .

رسائل الكتاب والقراء ، نافذتنا على اية بقعة وجد
فيها عربي يقرأ . من خلالها تغفلت هموم الوطن كله في
نفسنا . معا نشارك في عملية تثقيف ذواتنا وتثقيف
قرائنا . نقدم أفضل ما قراناه . ويلفتون نظرنا الى أفضل
ما قرأوه . وبفضل هذا التبادل تظل العلاقة قائمة بيننا ،

ويحس كل طرف انه مسؤول عن الآخر .

واليوم ، نخوض ، كمجلة ثقافية ، صراعا غير
متكافئ اتفرص مع المجلات الثقافية الاخرى ، الرسمية
بشكل خاص . ليست هي مشكلة حديثة تواجهنا ، ولكنها
اليوم اعمق تأثيرا . فتلك المجلات انيقة ، جميلة ، ذات
بشرة بيضاء ، تضم اشد الاسماء تألقا . ونحن تغلب علينا
البشرة السمراء ، والتكثيف في المادة والطباعة ، والصعوبة
في استبقاء المشهورين . كيف استمررتنا ؟ وكيف سنبقى ؟
واي اغراء تقدم ونحن لا نملك أي سلاح ، حتى سلاح ان
ندخل بكامل حريتنا هذا البلد او ذاك ؟ ان كل عاصمة
قادرة على محاربتنا ، اذا شئت ، او الحد من انتشارنا
لصالح مجلاتها الاقليمية ، بفضل شبكات التوزيع الرسمية
او شبه الرسمية عندها .

بلى ، نملك اغراء واحدا : الحرية . اننا نستطيع ان
نقول لا ، وخاصة حين ينطق بها كتابنا ويطلبها قراؤنا .
لا ، حين تكون هذه الكلمة معادلة لوجود برتمه ، حياة
بأكملها . لا ، في وجه اية سلطة قامعة ...

ولا اظنني بحاجة هنا لان اذكر موافقه في المؤتمرات،
دفاعا عن حرية الاديب العربي ...

اغراء آخر تقدمه . ابوابنا مشرعة بلا اقليمية .
شعراء هذا العدد اكثرهم من المصريين ، نكتشف ذلك
ونحن نقرأ العدد صادرا . هذا العدد يضم قصصا عراقية
فقط . لا بأس ، ما دامت هي افضل ما وردنا . شعراء
الجنوب يحتلون حيزا كبيرا . اجل ، انهم آيوا يحملون
قضية ، وشعرهم جيد . الفلسطينيون « يستولون » على
« الآداب » ، وابن تراهيم يذهبون وهم مطاردون مذبحون ؟
السوريون ، اتونسيون ، الجزائرليون ، المغربيون ،
السودانيون ، اليمينيون ، الليبيون جميعهم وجدوا لهم
ملجأ . الافضالية لمن يكون نتاجه ، على صعيد الموضوع ،
اقرب الى همومنا القومية والانسانية ، وعلى صعيد الفن ،
اقرب الى الجودة .

والآن ، وقد انقضت خمسة وعشرون عاما على
نضالنا ، اراك يا رفيقي تستعد لمتابعة المسيرة ! ولكن
الم يصيبك بعض التشاؤم او حتى اليأس ؟ الا تتردد
قليلا ؟ الا تقف لتتأمل الى ما صرنا اليه ، في معركتنا
القومية : على عتبة الاستسلام ؟

اسمح لي اذن ، ان اعبرك عن الحزن الذي يراودني
كرفيقة دربك : حزينة أنا ، صباح هذا العيد ، لانني
اشعر بأننا نحن ايضا ستذهب جهودنا في ربع قرن ضحية
على مذبح التخاذل والادهام ...

فهل أمامنا غير أن نواكبك ؟

وانت يا رفيقي ، ما دمت محصنا بالامل ، مشحونا بطاقات أمة لا ينضب معينها ، فسأظل الى جانبك . معا ستكون الرحلة القادمة أقل قسوة . لقد كنت أبدا تنشد الوحدة . ولكنهم ما زالوا يحرمونك منها ، وما فتئوا يقسمون أجزاءنا . أجزاء أجزاء . . أما أنت ، فقد استطعت ، بالرغم من كل السدود والحواجز والاعاصير ، أن تحقق وحدتك على أرضك الصغيرة المتواضعة ، ولكنها الأرض الحقيقية ، الأرض التي تحمل أشواق الضمير العربي النقي . من المحيط الى الخليج ، ومن المشرق الى المغرب ، تعانقت أجيال الشباب في رحلة صغيرة ، شريفة ، رحلة البحث فنيا عن الذات وتحقيق الحرية والوحدة والانسانية .

واذن ، فسواصل أنطريق ، نصرخ ونصرخ ونصرخ حتى تخرج أحلام الوحدة والحرية من رؤوسنا وأوراقنا وتتجسد على أرضنا الصلبة المحررة كأجمل قصيدة واروع قصة !

وتحية عرفان للادباء الذين امدونا بالتهب وسقطوا قبل ان يكملوا معنا المشوار ، سقطوا حزنا او تفجروا من الهزيمة والخيبة ، تحية وفاء للذين صمدوا معنا طويلا نم اغتيلوا أو استشهدوا ، وتحية حب صادقة للذين ما زالوا يواصلون معنا المسيرة ، المقيمين منهم في الأوطان أو المشردين، السعيدين أو المعذبين في السجون والمعتقلات، وعهدا للجيل الذي سيكبر بأن لا نلقي السلاح حتى نبلغ الكرامة والنصر .

اعرف جوابك ، ذلك الذي قلته لي منذ لقائنا الاول : ان طريقنا طويل وشاق . وانت اليوم تضيف : وتحسين ان ربع قرن شيء من عمر أمة ؟ ان النضال يكتسب معناه وسط الهزيمة ، ومن قاب الانهيار . . . وانظر معك وانت تشير السى سماح : انه ينمو ويتوسع ويفوقنا طولا وطموحا . ذراعاه تزدادان صلابة وشدّة وعنفا . عيناه تحسدان في الواقع وترفضانه وترفضان انهزيمة وترفضان الاستسلام وتخرقان المستقبل وتنفران فوقه . يا ولدي ، لاجل هذه الیسمة على شفقتك وشفتي جيلك ناضلنا ، لاجل هذا البريق من الامل الذي يتألق في عينيك وعيني جيلك ضحينا ، وصمدنا ، ظللنا واقفين رغم الوهن ، رغم الكبت ، رغم التعذيب والخيبة كي لا تجرف الهزيمة قاماتكم الطرية فيما هي تجرفنا . . .

— لماذا عدت من المدرسة يا سماح ؟
— لقد دعت الحركة الوطنية الى الاضراب احتجاجا على الزيارة المشؤومة .

— ولكن موعد الاضراب هو الغد ؟!
— أنت تعلمين ان الغد هو يوم العطلة أعادي .
— واذن ؟

— قررت مع بعض رفاقي أن نضرب اليوم ، مشاركة منا في المعنى الحقيقي للاضراب .

الطريق نفسها ، طريق التمسك بالتحقيقة والحرية والمبدئية والنضال ، هي التي ستقطعها اذن يا حبيبي ، يا ايها الجيل الذي ترفض أن تذلل ، وترفض الهزيمة .

صدر حديثا

أتولد بيروت وجها جميلا !

للشاعر فؤاد كحل

طوت جديد ذو تكهة خاصة . . .

منشورات دار الآداب